عالم المؤتمر

مجلة تراثية فصلية

تصدر عن دار الشؤون الثقافية العامة - وزارة الثقافة والاعلام - الجمهورية العراقية

WWW.ATTAWEEL.COM

المجلد السابع عشر
العدد الاول
١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

أسد الدين شيركوه

الرسوم التزيينية في الدور الحلبية

د. سلمان قطاية
(باريس)

عرفت حلب عصراً ذهبياً متأخراً خلال القرنين الميلاديين السابع والثامن عشر ، إذ كانت مركزاً تجارياً اقتصادياً هاماً تتبعه كل القوافل بين بريطانيا والهند ، هولندا وسوماترا ، فرنسا والهند والصينية ، . . والصين ، واليابان ، وفارس . . الخ . وانتشرت فيها صناعة الأقمشة ، فوصل عدد الأنوال اليدوية فيها الى خمسة عشر الفاً . ومن الحقائق الثابتة ان معامل مدينة ليون الفرنسية أكملت صناعتها الحريرية الثمينة بتقليد الانسجة الحلبية ، لأنها كانت تصدر الى اوربا . . وهكذا وفي عام ١٥٥٦ ، قدرت صادرات حلب بمئة الف دوقة وفي عام ١٧٧٠ كان حجم التجارة العامة السنوية للمدينة ١٨ مليون فرنك فرنسي . وكانت كمية الاقمشة المصدرة والمستوردة من والى اوربا عام ١٧٧٥ ستة آلاف وثمان وعشرون بالة .

ولقد وصفها السائح الفرنسي ڤولني VOLNEY الذي زار حلب في منتصف القرن السابع عشر بأنها « اكبر مدينة تجارية في جميع بلاد السلطان » .

وجاء ذكرها في مسرحيتي « ماكبيث » و « عطيل » لشكسبير .

وحلب شهيرة بابنيتها الحجرية الجميلة بسبب وجود مقالع يقتطع منها حجرها الأصفر الجميل المسمّى السوريّ (نسبة الى السور) وهو ليّن عند اقتلاعه لكنه لايلبث ان يصلب مع الزمان ، ومنه نوع ذي لون بني غامق يدعى « بقدونسي » . واشتهر معماريو حلب حتىٰ ان الأمير بشير الشهابي (١٦٩٧ - ١٧٠٦) عندما بنىٰ قصره ببيت الدين بلبنان استعان بمعماري حلب ومهرة بنّائيها .

ونظراً لمناخ حلب القاريّ ، اذ ترتفع الحرارة صيفاً فتجاوز الأربعين في شهر آب الملقب باللهّاب ، وتنزل احياناً حتى عشرة أو خمسة عشر درجة تحت الصفر في الشتاء ، ويهطل الثلج . لذا عمل الحلبيون على عزل منازلهم وذلك ببنائها على طبقتين : (أعني جدران المنازل) خارجية حجرية سورية وداخلية من حجر رَخْص لين كاسيّ يُدعى لُبنْ . ثم يكسون الجدران من الداخل بطبقة من الخشب زيادةً في

WWW.ATTAWEIL.COM

العزل ، وتجميل المنزل . واصبحت ، مع مرور الأيام ، هذه الطبقة موضع تفنّن وابتكار ، فزُيّنتْ برفوف ، وخزائن ومكتبات . كما غدت موضوعاً لتزيينها بالزخارف والرسوم .

وعلى اعتبار ان الشرقي منطوٍ على نفسه ، وان يحب ان يعيش بين افراد عائلته ، حيث تجتمع احياناً في الدار الواحدة ، عدة اجيال ، ونظراً لأنه يقضي معظم وقته في داره ، لذا اهتم بتزيينها وتزويقها وتحليتها خاصةً عندما إزدهرت المدينة وكثر المال وارتفع الذوق بسبب التماس والتبادل في الافكار والبضائع بين الشرق والغرب كما ذكرنا .

ولكن ومع مضي الأيام واختلاف الأفكار وتخلخل البنية الاجتماعية ، هجر الحلبيون هذه المنازل الجميلة وراحوا يندسّون في الطوابق أو في « فيلات » لاتتناسب لامَعَ ذوق البلد ولا مع مناخه . وزاد الطين بلّه ان الشرقي أُصيب بمركب نقص عبرّ عنه الشاعر الشعبي الشهير عمر الزعّني باغنية مطلعها :

كل شيء فرنجي برنجي

اي انفذلكة وحب التقليد الاعمى للاوربي . ولكن هذا عليم بما هو جميل وقيّم لذا سرعان ماراحت هذه الرسوم الجميلة واللوحات الظريفة والكتابات الرائعة التي كانت تزين الدور الحلبية تختفي لتظهر في اسواق بيروت ودمشق ثم لترقد في منازل باريس ومتاحف لندن . . . وبرلين .

ولقد قمت بدراسة متواضعة لبعض هذه الرسوم في ثلاثة دور حلبية : واحدة يسكنها مسلمون في حي باب المقام ، واخرى في حي الجديدة ، على غاية من الجمال ولكنها في تدهور مستمر اذ حولت الى مدرسة ابتدائية ، واخيرة حوّلت الى ميتم مسيحي تشرف عليها راهبات كاثوليك .

وكنتُ كلما زرت هذه البيوت كلما وجدْت الرسوم في تدهور مستمر حتى ان البعض منها إمّحى أو كاد .

ومواضيع الرسوم هي مايسمى الآن بالطبيعة الجامدة أو الميتة Nature Morte كالأزهار ، والفواكه ، والأشجار ، ومناظر المدن .

والازهار متنوعة : كالقرنفل والياسمين ، والزنبق ، والفُلّ . وهي منسّقة بشكل متناظر بيضي الشكل او شبه مستدير . والألوان كلها او تكاد من مشتقات اللون الأصفر او الأحمر لكنها كامدة اللمعة بمعنى انها بعيدة عن حدة الألوان التي نراها في الرسوم الشعبية .

والخط واضح وصريح في كل الرسوم ، لكننا لانستطيع إدراجها كرسوم ملوّنه ، انها فن تصوير كامل .

والأنسجام بين الألوان جيد ، والكل يخلق جوّاً ناعماً هادئاً « صميمياً » مثل الوان لوحات الفنانين الاوربيين الذين اطلق عليهم اسم الصميمين INTIMIMISTES

والالوان قريبة جداً من الوان رسوم المخطوطات العربية القديمة كلوحات الواسطي في مقامات الحريري ، او كتاب الترياق .

ومعظم الفواكه أو كلها من النوع المزروع في المنطقة . كالعنب والتين والبطيخ الأحمر ، والكرز ، والتفاح والرمان ، والمشمش .

ولكنني لم اجد اثراً للفستق الحلبي الشهير او القراصيّة الحلبيّة . ربما كان ذلك لكونها غير معتبرة من الفواكه ، ولكونها موسمية او انها صعبة الرسم .

وطبعاً لااثر لما هو مستورد كالموز والبرتقال . والفواكة منضدة على صحن مختلف الأشكال ، وقد يرسم الفنان السكين إلى جانبها . والألوان هي هي .

اما الرسوم فهي مرتّبة ضمن رسوم هندسية مثمنة الاضلاع ثلاثة او اربعة ، تتوالى فيها المواضيع : زهور ، فواكه ، زهور ، فواكه . . . الخ . وبين الأشكال الهندسية زخارف رقشية عربية . تكثر الفواكه في الغرف أو الأقسام من الغرف التي تكرس لتناول الطعام ، وتكثر الزهور في الغرف الأخرى .

اما المدن فهي نادرة وتبدو وكأنها اسطورية لاعلاقة لها بالواقع فلم اجد منها مايشير ، ولو من بعيد ، إلى مناظر المدينة وينبعث منها شعور عجيب : بالوحدة ، والكآبة ، فهي خالية لابَشَر فيها ، مهجورة ، وغريبة !! . . وتكوينها

هندسي دقيق أنيق ورقيق وناعم . وهي مأطرة بشكل واضح بحيث يخيل للناظر اليها ولاول وهلة انها نافذة مفتوحة على منظر سيريالي ولم اجد توقيعاً او اسماً او تاريخاً يدل على صانعها او تاريخ صنعها .

وكان في حلب بسبب وقوعها على طريق الهند ، جالية انجليزية جيدة والسبب ان القوافل الآتية من الشرق كانت تتوقف في حلب ثم تذهب منها الى اسكندرونة التي كانت المرفأ الطبيعي لحلب ، ومنها كانت تُنزّل البضائع الواردة من بريطانيا فتحملها القوافل الى الشرق مروراً بحلب .

ولكن ، وعندما ، افتتحت قناة السويس عام ١٩٧٠ تحولت الطرق التجارية ، ففقدت حلب اهميتها وانهار اقتصادها تدريجياً .

وكان احد اطباء الجالية البريطانية المدعو اليكسي راسل A. Russel عاش في المدينة وألف كتاباً عنها لم ينهه إذ عاجلته المنية فجاء اخوه باتريك واكمل عمل اخيه ونشر الكتاب في لندن عام ١٧٩٤ تحت عنوان « التاريخ الطبيعي لمدينة حلب » واعيد طبعه في السبعينات .

وجاء وصف هذه الرسوم في الكتاب كما يلي :

« الجدران والسقوف مزينة بزهور وفواكه ، واشياء اخرى مرسومة بالوان حارة يخالطها الذهب ، ومزوقة بغنى . وتوجد في بعض الغرف مناظر مدن ، وحدائق ، ومنازل مصورة على الابواب . ولكن لاتوجد صوره إنسانية . ولا اهمية لقواعد المنظور فيها وكتبت على اللوحات الخشبية فوق النوافذ والابواب امثلة وحكم وآيات قرآنية ،

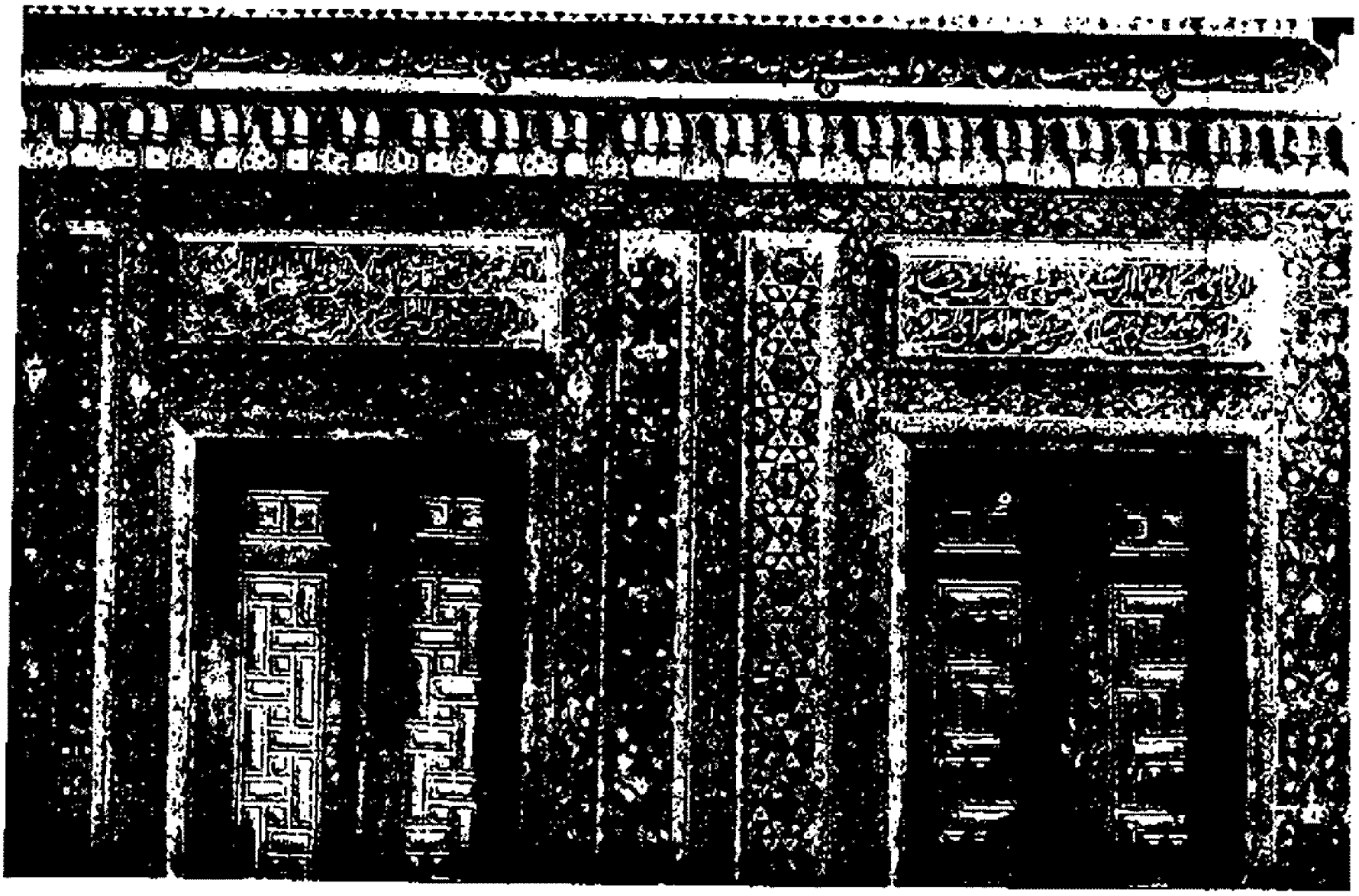

٦ منظر من الغرفة الحلبية بمتحف برلين بالمانيا الشرقية

وابيات شعرية ، واحيانا بعض الجمل التي تمتدح صاحب الدار ، بلغة عربية وخطوط جميلة مزوقة »

وعبثاً بحثت في الكتب المكرسة لتاريخ حلب ورجالاتها عن اسماء فنانين او معماريين او حتى اطباء . . . فلم اجد إذ انها كلها مكرسة لرجال الدين !؟ واشهر هذه الكتب ، نهر الذهب في تاريخ حلب » للمقدسي ، و « إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء للطباخ .

ولكنني وجدت اسمين فقط في كتاب احمد تيمور باشا « التصوير عند العرب » من بين التسعة وثلاثين مصوراً مذكورين في كتابه وهما :

ـ احمد بن يوسف بن هلال الحلبي : الذي « كان يصنع الأوضاع العجيبة وبرع في النقش والتزميك[1] . واولع بصنع الاوضاع المستحسنة في الأوراق المذهبة . توفي عام ٧٣٧ هـ ، وقبل عام ٧٣٨ هـ (١٣٣٧م) . »

وعائلة هلال معروفة في حلب ولا يزال من ابنائها من هو حي يرزق .

والثاني هو : ابو بكر بن محمد الجلّومي الحلبي : « شيخ مسنّ ، خدم اساتذة النقاشين من غير العرب ، واستفاد منهم ، ومهر في نقش البيوت ، وكتابة الطرازات على طريق القاطع والمقطوع ، وفي نقوش ماكان لكُفّال حلب وغيرهم من الرماح والسروج والذهب واللازورد . مع معرفة طريقة حله ، وفي صنعه التركاش وضعاً ونقشاً ، وصنعة اللوح الذي يكتب فيه ، وصنائع أخرى تتم عشرين صنعة ، وكانت له سَلعة عظمى تناهز بطن بالقرب من

كتفه ، سببها أنه طُلب إلى آمد للنقش في عمارة جُدِّدَت بها ، فرافق نقاش شرقي فشعر باسمه ، فضربه على ظهره بخشبه ضرباً مبرحاً فأمرضه مدة ، وأدّى إلى ان كانت له هذه السلعة . ولما أسَنّ هيأ له كفناً وقبراً ، وسألني في بيتين ينقشهما عليه فقلت :

ابـو بكـر النقـاش احـوج سـائـل ينقشهـا
إلى رحمـة تغضـيـه عـن مـوجـب الـوزر

فيا أيها المجتاز نحو ضـرعيـه
تمهـل قليـلاً داعيـاً لأبي بكـر

ثم مات سنة سبعين وتسعمائة بعد جلوسه في بيته يتلو القرآن (٩٧٠هـ = ١٥٦٢م) »

والسيرة هذه تستدعي عدة ملاحظات :

١ ـ الجلّومي : نسبة الى حي الجلّوم في حلب . وتميز فيه محلة الجلوم الصغرى ، ومحلّة الجلوم الكبرى . فهو حلبي قحّ .

٢ ـ تعلم عن النقاشين « الاجـانب » ونحن نجهل هوياتهم .

٣ ـ الطّرازات على طريقة القاطع والمقـطوع : لعلها الطريقة التي وصفتها اي المثّمنات وترتيبها !!

٤ ـ كان يرسـم ويزخرف السـروج والاسلحة مستعملاً الذهب والاحجار الكريمة .

٥ ـ صنعة التركاش : تقنية لم اعثر على تفسير لها :

٥ ـ السُّلعة . ربما كانت نزفاً دموياً وتمزقاً عضلياً تكتل وتكلس تحت الجلد فشكل تلك السُّلعة .

٦ ـ النقاش الشرقي المجهول ! والواقع أننا نرى في بعض الرسوم تأثيراً دخيلاً واضحاً كما في الغرفة الحلبية التي سنتعرض لها بعد قليل .

وكـان الاوربيون في القـرن التاسـع عشـر في إبـان الرومانسية والتغريبية EXOTISME واستهواهم الشـرق وشدهم اليه لدرجة كبيرة وهكذا حضر الى حلب احد المستشـرقين الألمـان ، وكـان من كبـار هـواة الآثـار ومقتنيها ، فاعجب بالزخارف الحلبية فاشترى غرفة بكاملها ، فنقلها الى بلاده وهي اليوم محفوظة تحت الرقم ١٧ في متحف برلـين الاسلامي بـالمانيـا الديمقراطية .

والغرفة هي كـل الغطاء الخشبي للقـاعة أي غـرفة استقبال الضيوف ، اي واجهة البيت ، وعنوان رقي وغنى صاحب الدار . وكـان تاجـراً من تجار المـدينة ويُدعى « حج عيسى بن بـدروس » ولابد انـه كان مسيحياً من سكان محلة الجُدَيْدَة أو ربما المحلة التي كان يسكنها مسيحيو حلب قبل ان ينتقلوا الى الجديدة ثم من بعدها الى العزيزية (التي بناها عزيز باشا حاكم حلب) .

وفي اعلى القاعة يقرأ البيت التالي :

« تنـام عينيـك والمـظلوم متـــيـقـظ
يـدعـو عليـك وعين الله لم تنـم

انشأ هذا المكان حج عيسى ابن بـدروس في شهـر جمـادى الاول سنـة الف واثنـا عشـر »
(١٦٠٠ ـ ١٦٠٣ م)

وفوق البابين بيتان من الشعر ، وهي ادعية مسبوكة باسلوب ركيك .

والخط فارسيّ تعليق جيد ومزخرف . وتحت التاريخ زخرفة خشبية مقرنصة ، ثم رسوم دقيقة زخرفية تذكّر بزخارف السجاجيد العجمية . وثمة رسـوم تذكـر بلوحـات « ميلاد السـيد المسيح عليـه السلام » الى جانب زخارف ذات اسلوب دخيل واضح .

والقاعة هذه مفتوحة نحو الباحة الداخلية اي صحن الدار ، وهي كما هو معلوم ، البقعة المتوسطة لكـل بيـوت حلب التقليديـة ، والشرقيـة عـامـة . وتعلو القاعدة قبّة عالية ، فيها فتحات مغطاة بالزجاج الملون ليسقط منها الضوء لأنارة المكان .

ويبدو لخبراء المتحف ان الرسوم مصنـوعة بـالرسم الشمعي ! لذا كان الاحتفاظ بها صعباً !؟

ويوجد رسم مشهد غريب إذ يُرى في السطح الأيسر حاكم شرقي مع أتباعه ، وهو يتناول رؤوس الأعداء القتلى ويضعها في وعاء !!؟! ويستعد للصيد باسلوب المثمنات .

دار « المفتين » بحي الجلوم بحلب رسوم جدارية بالزيت على الخشب

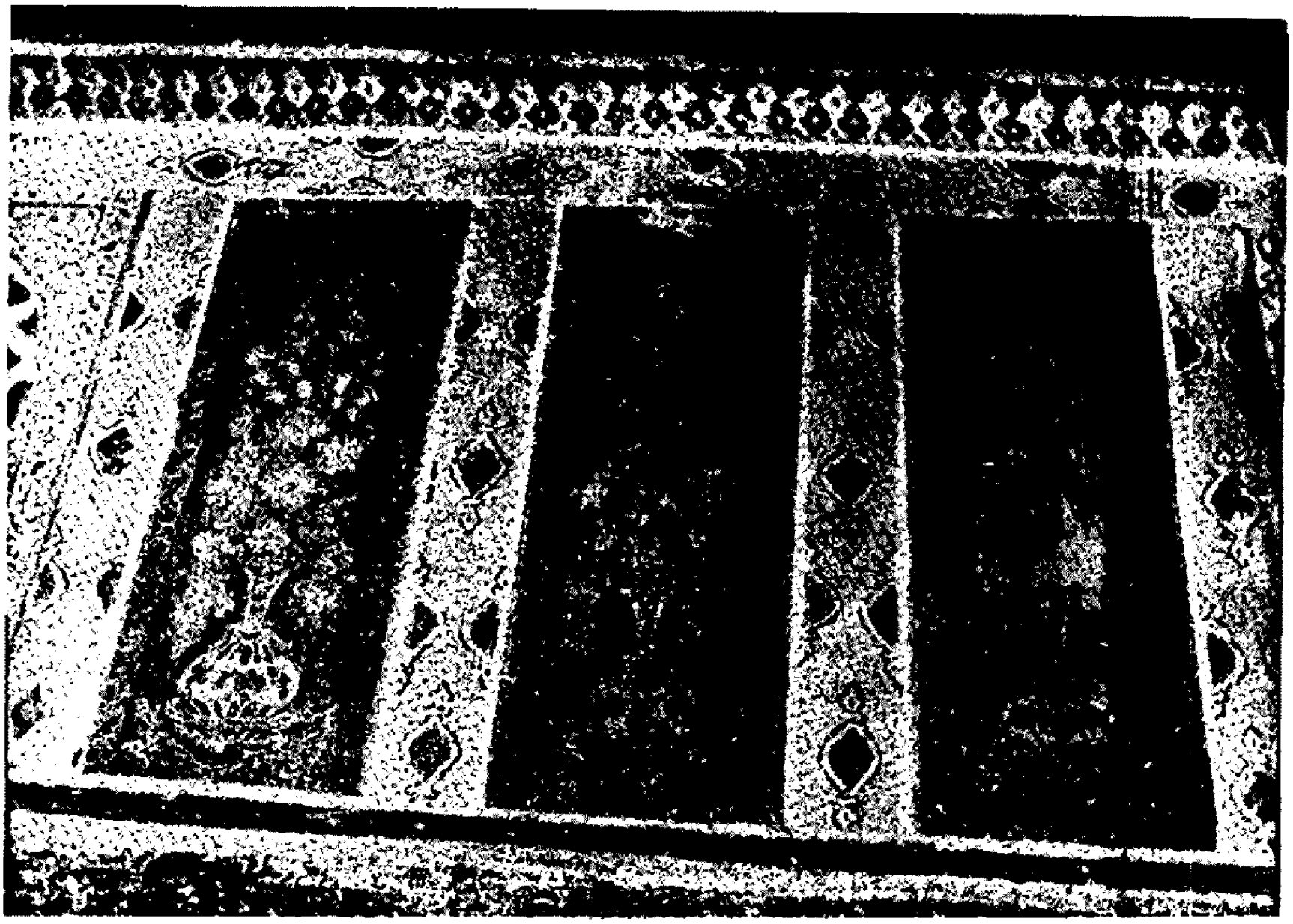

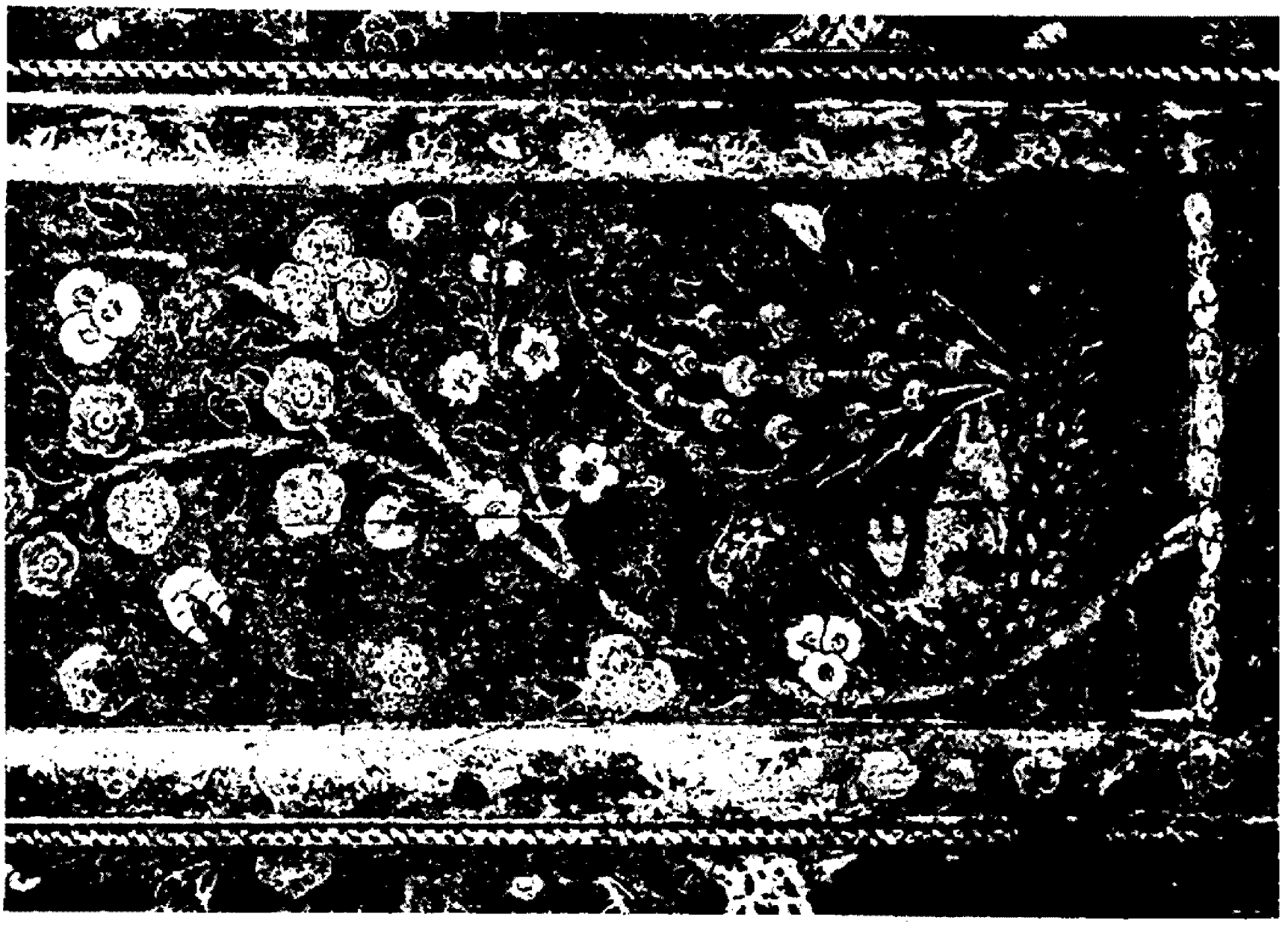

تجسيم للزخارف في الغرفة الحلبية

فما السبب ياتُرى الذي دفع بصاحب البيت أو بالفنان الى تصوير هذا المشهد الرهيب !

وثمة رسوم اخرى يرى فيها موسيقيون وقديسون ومصارعون واشكال اسطورية وحيوانات .

والرسوم ذات مستوى فني جيد متأثر بالذوق الذي كان سائداً في العصر العثماني .

وتم تجهيز الغرفة وتأثيثها عام ١٩٦٠ ضمن شكلها الأصلي ذي الابعاد الثلاثية . وهي تقدم صورة واقعية للحضارة السكنية لسكان مدينة حلب في بداية القرن السابع عشر .

وخلاصة : إن لهذه الرسوم قيمة كبرى ، ولجمعها وحفظها في المتاحف فائدة جُلّى . كذلك طبعها في كتب ملونة مع نصوص علمية جيدة .

وتكريس اطروحات في كليات الفنون لها امر هام وجدير بلفت الانظار لأننا نبحث دوماً عن مصادر لفن عربي حديث ، ولأننا متهمون دوماً بالتقصير في هذا الميدان .

ودراستي هذه محاولة متواضعة ، ولكنها تهدف الى التنبيه الى اهمية هذا النوع من الفنون ، وكنت قد لفتُ الانظار الى هذا الموضوع في مجلة « عاديات حلب » الصادرة عن جامعتها منذ اكثر من عشر سنوات .

المصادر والمراجع

١ ـ المصادر العربية :

ـ عكاشة : ثروت ـ « فن الواسطي من خلال مقامات الحريري » ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٧٤ .

ـ تيمور باشا : أحمد ـ « التصوير عند العرب » ـ القاهرة ـ ١٩٤٢ .

ـ قسطون : وديع ـ « الافرنج في حلب في القرن الثامن عشر ـ حلب ١٩٦٩ .

ـ كنّد : جميل ـ « تاريخ الآلة والتصنيع وتطوراتها ـ حلب . ١٩٦٢ .

٢ ـ المصادر الاجنبية :

LES REFERENCES

— SAUVAGET : S. — Alep Paris 1942.

— VOLNEY : — Voyage en Egypte et en Syrie Paris 1959

— RUSSEL : Alex— The Natural History of Aleppo London 1794.

— STAATLICHE MUSEEN ZU BERLIN photographische Ableitung.

* * *